**المحاضرة الخامسة**

**- مباحث الأدب المقارن: التأثر والتأثير**

تعد ثنائيّة التأثر والتأثير من المفاهيم التي اهتم بها الأدب المقارن لوجود صلات بين مجموعة من الآداب، فالاحتكاك بين الآداب المختلفة نتج عنه التأثر والتأثير. وتعتبر المدرسة الفرنسيّة من المدارس المهتمة بهذه الثنائيّة، فهي التي تطرقت إلى دراسة تأثير الأدب الفرنسيّ في غيره من الآداب القوميّة أو تأثره بها.

**1- مفهوم التأثر والتأثير**

**أ- لغة**: أخذت الكلمتين "التأثر والتأثير" من مادة "أثر"، وقد جاء في لسان العرب «أثر: الأثر بقية الشيء، والجمع آثار وأثور. وخرجت في إِثْره وفي أَثَره أي بعده. وأْتَثَرْتُه وتَأَثَّرْتُه: تتبعت أثره. ويقال: آثر كذا وكذا بكذا وكذا أي أتْبَعه إياه... والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء. وأثر في الشيء: ترك فيه أثرا»[[1]](#footnote-2)1. وجاء في قاموس المحيط «الأثر: بقية الشيء، ج آثار وأُثور... وخرج في إِثْره وأَثَرَه بعده وأتثره وتَأَثَره تبع أثَرَه وأثَّر فيه تَأَثِيرا ترك فيه أثرا»[[2]](#footnote-3)2. فالتأثير إذن هو ترك الأثر في الشيء.

وقد ورد ذكر لفظة "آثار" في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَآثَارًا في الأَرْضِ ﴾[[3]](#footnote-4)3، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾[[4]](#footnote-5)4. فالتأثير – إذن- يعني إبقاء الأثر الذي يدل على وجوده.

**ب- اصطلاحا**: «التأثير أروج مصطلحات الأدب المقارن ذيوعا... يمكن القول أن له أكثر من مفهوم، وأروجها ما يشير إلى علاقة مباشرة من أي لون، والتي يمكن أن تقوم بين المرسِل والمتلقي، فدراسة تأثير إليوث في الشّعر العربي المعاصر – مثلا- تعني أن ندرس ما ترجم من أعماله إلى اللّغة العربيّة، وأعمال مقلّديه، والصلات الشخصية بينه وبين من قّلدوه، إن وُجدت، وما وُجه إليه من نقد، والدراسات التي نشرت عنه في العالم العربي، أي أن تأثيره يساوي مجموعة العلاقات المباشرة بينه وبين الأدب العربيّ»[[5]](#footnote-6)5. إنه تأثير كاتب/أديب/ تيّار... على آخر، أي أنه العلاقة القائمة بين المرسِل والمتلقي، مثل تأثير الموشحات والأزجال الأندلسية (المرسِل) في شعراء التروبادور[[6]](#footnote-7)\* (المتلقي) في الشكل والمضمون.

و«التأثير لا يقتضي فقط وجود "مرسل" فعال وحده، أو "مرسل إليه" مستعدا للاستقبال ومنفرد، بل لابد من وجود حد وسيط يلعب دورا أساسيا في كلّ تأثير أنتروبولوجي، يراعي معطيات الوضعيات الثقافية التي تدفع إلى التأثير أو إلى التأثر في الثقافة "المرسلة" أو الثقافة "المرسل إليها"»[[7]](#footnote-8)1. فالتأثير يقتضي وجود "مرسِل" و"مرسَل إليه" و"وسيط".

ويعد المرسل المنتج الأول، أو إثبات أو "المؤثر" صاحب المادة الثقافية التي يرسلها إلى المستقبِل. أما المستقبل أو المتقبل، فهو الذي يستقبل – عن طريق الوسيط من أي نوع- المادة الثقافية المنقولة فيتأثر بها أو يحاكيها. وأما الوسيط فهو حلقة الوصل المهمة بين المرسل والمستقبل وهو أقسام أهمها: الأشخاص، الكتب، انتشار اللّغات، وسائل الإعلام، المراكز الثقافيّة الأجنبية والأندية الأدبية، الجامعات والمدن، الترجمة بأنواعها المختلفة[[8]](#footnote-9)2. تقوم عملية الـتأثير والتأثر على وجود مؤثر ومتأثر ووسيط، فالتأثير هو المرسل/ المؤثر يمثّل نقطة الانطلاق. أما التأثر فهو المرسل إليه/ المتأثر، ويمثّل نقطة الوصول. وتمثّل مهمة الوسيط في ربط الصلّة بينهما وتفعيلها، وهذا ما يمثّله الشكل التاليّ:

|  |
| --- |
| **التأثير** |

|  |
| --- |
| **التأثر** |

|  |
| --- |
| **الوسيط** (الأشخاص، الكتب، انتشار اللّغات، وسائل الإعلام، الترجمة...) |

|  |
| --- |
| المتأثر |

|  |
| --- |
| المؤثر |

|  |
| --- |
| المرسِل (مؤلِفا، مؤلَفا، تيارا، فكرة...) |

|  |
| --- |
| المستقبِل/ مرسَل إليه |

شكل يوضح لنا مصطلح التأثير والتأثر

و«أوّل ما يلفت نظر الباحث ويدفعه إلى استطلاع معالم الصلات الأدبية هو التشابه في النصوص لكاتبين أو لعدد من الكتاب في آداب مختلفة، تشابها يحمل على الظن بأن هناك صلات تاريخيّة بين هؤلاء الكتاب. ومن هنا يجب الكشف عن تلك وتحديدها، ويبحث أوّلا في تاريخ تأليف نصين لمعرفة إمكانية التبادل الزمني بين المجالين، وقد يعني كلّ ذلك نص واضح من المؤلف، يعترف فيه أنه حاكى أو تأثر أو أعجب بأفكار الكاتب الأجنبي... قد يكون التشابه نتيجة التأثر فعلا، فإنّه من الممكن أيضا أن يكون مما يسببه تناول الموضوعات العامة الشائعة»[[9]](#footnote-10)1. فوجود التشابه لا يعني بالضرورة أن أحدهما قد تأثر بالآخر، «وهنا يجب أن يهيمن على الدارس المقارن التأني في التعامل مع التشابه وعدم التسرع في اعتباره نتيجة أخذ النص المدروس من النص الذي يكون قد سبقه زمنيا بالطبع، في الأدب الآخر»[[10]](#footnote-11)2.

ومن ثم لا ينبغي أن نرجع تشابه الأفكار إلى التأثير دائما، إذ قد تتشابه الأفكار دون اطلاع الكتاب/ الأدباء ببعضهم البعض. كما أنه يمكن للكاتب أن يأخذ من آخر دون قصد منه لأنّه سبق وأن قرأ له، ثم نسي ما قرأه وبعد مرور الوقت استحضر الأشياء التي اطلع عليها عن غير قصد منه. إذ «يجدر بنا تمييز مستويات التأثير المختلفة، بدءا بالتقليد الواعي إلى أن تطفو لا شعوريا أبيات سبقت قراءتها مرارا في الماضي البعيد، ثم الاستعارة البسيطة جدا، ولا ينبغي رد مجرد لقاء أو توارد خواطر إلى التأثير مباشرة»[[11]](#footnote-12)3.

ولعلّ «ما يؤكد كون التشابه نتيجة التأثير والتأثر فهو **أوّلا**، تحقق اللّقاء التاريخي – الأدبي بين الأدبين المعنيّين أو الأدبين أو التيارين المعنيّين، و**ثانيا،** مدى انتشار الأدب أو العمل الثاني في بلد الأدب أو العمل الثاني، و**ثالثا**، اطلاع أدباء الأدب الأوّل أو صاحب العمل الأوّل على الأدب أو العمل الثاني»[[12]](#footnote-13)4.

ومن بين القرائن والعوامل المساندة على معرفة الـتأثير والتأثر، نجد[[13]](#footnote-14)5:

**أ**- إثبات الصلات بين الأديب أو الأدب المفترض تأثرهما، والأديب أو الأدباء أو الأدب المفترض تأثيرها؛

**ب**- معرفة المصادر كتبا وغيرها التي يكون الأديب المفترض تأثره بها قد عرفها وقرأها؛

**ج**- التعرف على مدى معرفة اللّغة أو اللّغات الأجنبية؛

**د**- وتعلقا بذلك كلّه تبرز أهمية سير الأدباء المدروسين وكتاباتهم والمقابلات والحوارات التي تجرى معهم، وتصريحاتهم.

والتأثر بالآداب الأخرى لا يفقد أصالة الأدب القومي، ذلك أن الأصالة تقتضي الاستفادة من تجارب الآخرين «فمحور التأثر هو الأصالة، أصالة الأفراد وأصالة القومية، وبها تتحقق المحاكاة الرشيدة المثمرة... فالأصالة الحق ليست بقاء المرء في حدود ذاته، وليست هي إباء التجارب مع العالم الخارجي، لكي يضل المرء هو هو دون تغير أو تحوير، ولكن الأصالة الحق هي القدرة على الإفادة من مظان الإفادة الخارجة عن نطاق الذات، حتى يتسنى الارتقاء بالذات عن طريق تنمية إمكانياتها، ولا يستطيع المرء أن يصقل نفسه، ولا أن يبلغ أقصى ما تيسر له من كمال، إلا بجلاء ذهنه بأفكار الآخرين، وبالأخذ بالمفيد من آرائهم ودعواتهم»[[14]](#footnote-15)1. فالتأثر إذن لا يفقد أصالة العمل الأدبيّ القوميّ... فالأديب لا يستطيع تكوين نفسه دون استفادته وأخذه من الآخرين.

ويرى يوسف بكار وخليل الشيخ أن التأثر والتأثير ليس شيئا واحدا، بل هما مساران مختلفان، ذلك أن التأثر يكون في المرسل إليه من المرسل، وتكون مصادر المرسل إليه من آداب أجنبية، ويتأثر بكتاب أو أديب أو أدب بكامله، وليس ضروريا أن تكون هذه المصادر من جنس النص المدروس، فقد يكون النص أدبيا والمصادر ليست أدبية. أما التأثير فتنبعث دراسته عن عمل واحد أو مجموعة أعمال لأديب واحد أو بلد واحد وتكشف آثاره عند الآخرين وتسربه إلى آداب أجنبية[[15]](#footnote-16)2. فالتأثير يكون في أعمال أديب واحد، أو بلد واحد، أما التأثر فتكون مصادره من آداب أجنبية...

**2- أسباب التأثر:** يتم التأثر للأسباب التالية**[[16]](#footnote-17)1:**

**أ**- إعجاب أديب بآخر أجنبي، لأنّه يعبّر عما في فكره ونفسه؛

**ب**- فقر الأدب القوميّ في عصور انحطاطه مع وجود آداب غنية تمده بما لا يفقده هويته وأصالته، وبما يساعد على نهضته ونموه؛

**ج**- الرغبة في التجديد بعد مدّة طويلة من انكفاء الأدب على نفسه وانغلاقه؛

**د**- الهجرات بسبب اضطرابات سياسية أو اجتماعية أو طبيعية. وقد يكون بين المهاجرين أدباء يتأثرون بثقافات البلدان التي هاجروا إليها...

**ه**- ميل عدد من المثقفين إلى أدب للتخلص من هيمنة أدب آخر، كاتجاه بعض المثقفين العرب في وقت ما إلى الأدب الروسي تخلصا من هيمنة الآداب الغربية.

**3- أنواع التأثر**: هناك نوعان من التأثر، هما[[17]](#footnote-18)2:

أ- **التأثر السلبي أو المضاد أو العكسي**: وهو ما يقبل الرافد الأجنبي لكنه يناقشه ويرد عليه بموقف مخالف، ومثال ذلك دفاع أمير الشعراء "أحمد شوقي" عن (كليوباترا) واتخاذها مثلا للتضحية بحبها في سبيل وطنها والدفاع عنه، عكس الفكرة التي راجت عنها في الآداب الغربية التي صوّرت (كليوباترا) في صورة المرأة المستهترة التي تلهو وتلعب بالرجال وتفسد الصالحين، فأحمد شوقي تأثر بهؤلاء الغربيين تأثرا عكسيا...

**ب- التأثر التأويلي**: وهو تأويل الأديب لما يقرأه من الآداب الأخرى، مثال ذلك تأويل الكاتب الانجليزي "توماس كاريل" "Thomas carlyle" لما قرأ عن الأديب الألماني "غوته Goethe" حيث أنه لم يلحظ ما في أعماله الأدبيّة من سخرية وإلحاد واستجابة للملذات، بل رأى فيه ما يتفق مع تربيته الدينية، وهو أنه حكيم يدعو إلى التدين والخلق القويم. ومثل أيضا شخصية "قيس" التي حولها صوفية الفرس – ومنهم الشاعر عبد الرحمن الجامي- وأولها تأويلا يتفق مع مفاهيم الفرس ويتسق مع نظرتهم إلى "الإنسان الكامل" الذي يعرض عن الدنيا في سبيل الحب الأسمى.

**4- أسباب التأثير**: أما التأثير فيتم للأسباب التاليّة[[18]](#footnote-19)1:

**أ**- أصالة الأديب المؤثر، وقوة إبداعه وبعده الإنساني؛

**ب**- طرافة الأشكال الأدبية وتلاؤمها مع المضامين المعبر عنها. فكلّما ابتعد الأديب عما هو شائع ومألوف وحاول الابتكار والتفنن في بناء نصوصه الأدبية كان تأثيره أعمق وأوسع وأشمل؛

**ج**- انتشار أدب ما بين شعب أو شعوب تعاني ثقافتهم من أزمة مردها تدهور الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة مما يجعل المثقفين يبحثون عن مصادر جديدة في آداب غيرهم؛

**د**- هيمنة ثقافة سائدة، كثقافة المستعمر مثلا.

**5- أنواع التأثير**: هناك نوعان من التأثير:

**1- التأثير الإيجابي**: تأليف عمل أدبي يشبه العمل الذي تأثر به في إحدى النواحي، كأن يشبهه مثلا في الشكل أو الأسلوب أو الرموز أو الأفكار أو الموضوع... مثل تأثير جنس (نوع) أدبي في أدب ما في غيره من الآداب الأخرى، كتأثير الموشحات في الشعر الأوروبي وفي شعراء التروبادور خاصة[[19]](#footnote-20)2.

**2-التأثير السلبي**: وهو نوعان[[20]](#footnote-21)3:

**أ- التأثير الزائف**: يتأتى عن تشويه المتأثر للأعمال التي تأثر بها كأن يغيرها عن قصد أو غير قصد، وقد يكون سبب هذا الترجمة الخاطئة لتلك الأعمال أو التأويل المحرف لها...

**ب- التأثير المجهض**: كـأن يجذب أديب كبير مجموعة من الأدباء ممن هم أقل منه، فيسعون إلى السير على هدي أعماله وتقليده، لكنهم لا يبلغون شأوه. ويعد هذا الضرب من التأثير نوعا من "عبادة البطل".

**6- تأثير داخل الأدب القومي وتأثير وافد من الخارج**: ميّز "أحمد شوقي رضوان" بين نوعين من التأثير[[21]](#footnote-22)1:

**أ- تأثير داخل الأدب القومي**: يدخل في نطاق تاريخ الأدب القومي، يطلق عليه مصطلح "الموازنة"، مثل الموازنة بين "أحمد شوقي" و"المتنبي"... هنا يتحرك الاثنان المؤثر والمتأثر في إطار محيط أدبيّ واحد، ونظام لغويّ واحد.

**ب- تأثير وافد من الخارج**: وهو التأثير الوافد من أدب قومي آخر، وهو النوع الذي يهتم به الأدب المقارن، وهنا نجد أن كلّ من المؤثر والمتأثر يدور في فلك مختلف عن الآخر، وهو نتاج محيط أدبي مختلف عن المحيط الأدبي الذي أنتجه الآخر، ومن ثم يكون هناك تمايز نوعي بينهما.

**7- تأثير أدبيّ وتأثير غير أدبيّ:** التأثير الأدبيّ يكون فيه طرفي العلاقة أعمال أدبية، كالتأثير الأدبي بين "توفيق الحكيم" و"برنارد شو" في مسرحية بيجماليون، أو بين الشعر العربي والشعر الفارسي... أما التأثير غير الأدبي فهو التأثير الذي يكون في غير الأدب كعلاقة التأثر والتأثير بين رفاعة الطهطاوي والثقافة الفرنسية، أو بين أنيس منصور والفلسفة الوجودية[[22]](#footnote-23)2.

**8- التأثير والتقليد:** التقليد تأثير شعوري واعي، وهو محاولة إعادة صياغة نموذج أدبي لمبدع آخر موهوب أكثر بكثير من المقلد، ففيه يتخلى المقلد عن شخصيته ويذوب في مبدع آخر... مقياسه كمي. أما التأثير فتقليد غير شعوري، ومقياسه نوعي، ففي أغلب الأحيان يكون المؤثر والمتأثر في قدر واحد من الموهبة، والمتأثر الحصيف هو الذي يخضع ما يتأثر به لتركيبة جديدة يخلقها هو في عمله الإبداعي[[23]](#footnote-24)3.

**9- الانتقادات**: أُنتقدت ظاهرة التأثير والتأثر من قِبل النقاد الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية، فهم يرون أن مؤرخ الأدب عندما يدرس تأثر العمل الأدبي بغيره يفتت العمل الأدبي إلى جزئيات يتناول بعضها في دراسة تأثر العمل في هذه الجزئية أو تلك، ولا يتناول العمل الأدبي بكونه تشكيلا فنيا متكاملا، لأنه لا تتضح قيمته إلا بالنظر إليه في كليته وشموليته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن دراسة التأثير قد جعلت الدارسين يختارون أدباء وأعمال أدبية من الدرجة الثانية... كما أنها تتوقف عند مجرد إثبات التأثير وتتبعه وتسجيله...[[24]](#footnote-25)1.

1. 1- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، مج: 04، دار صادر، بيروت، د. ت، ص 05. [↑](#footnote-ref-2)
2. 2 – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي: القاموس المحيط، ط3، ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص350. [↑](#footnote-ref-3)
3. 3- سورة غافر، الآية 21. [↑](#footnote-ref-4)
4. 4 – سورة الحديد، الآية 27. [↑](#footnote-ref-5)
5. 5 – الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، ص 225. [↑](#footnote-ref-6)
6. \* - «هم طائفة من الشّعراء كانوا يتغنون بلغتهم العامة بالحب على نحو يخضع فيه المحبّ ويعبّر عن سلطانه عليها على الرغم من بقائه في دائرة الغزل الحسي» يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 120. [↑](#footnote-ref-7)
7. 1 – سعيد علوش: إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي (دراسة مقارنة)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 123. [↑](#footnote-ref-8)
8. 2 – ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص 68- 69. [↑](#footnote-ref-9)
9. 1- نجم عبد الله كاظم: في الأدب المقارن – مقدمات للتطبيق، ص 10 – 12. [↑](#footnote-ref-10)
10. 2- م. ن، ص 12. [↑](#footnote-ref-11)
11. 3 - بير برونيل وأ. م روسو وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 92. [↑](#footnote-ref-12)
12. 4 - نجم عبد الله كاظم: م. س، ص 13. [↑](#footnote-ref-13)
13. 5- م. ن، ص. ن. [↑](#footnote-ref-14)
14. 1 – محمد غنيمي هلال: دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، ص29. [↑](#footnote-ref-15)
15. 2 – ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 63. [↑](#footnote-ref-16)
16. 1 – يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 63. [↑](#footnote-ref-17)
17. 2 – ينظر: - م. ن، ص 64.

    - محمد السعيد جمال الدين: الأدب المقارن، دراسات تطبيقية في الأدبين العربي والفارسي، ص 35 – 36. [↑](#footnote-ref-18)
18. 1 - يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 65. [↑](#footnote-ref-19)
19. 2 – ينظر: - م. ن، ص. ن.

    - أحمد شوقي رضوان: مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص 40. [↑](#footnote-ref-20)
20. 3 - يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص 65 – 66. [↑](#footnote-ref-21)
21. 1 - ينظر: أحمد شوقي رضوان: مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص 36. [↑](#footnote-ref-22)
22. 2 – ينظر: م. ن، ص 38. [↑](#footnote-ref-23)
23. 3 – ينظر:- يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 66.

    - صلاح فضل: تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي، ط3، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1986، ص 29. [↑](#footnote-ref-24)
24. 1 – ينظر: أحمد شوقي رضوان: مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص 33 – 34. [↑](#footnote-ref-25)